بلاغة إنزال الإنشاء منزلة الخبر
مُثْلٌ مِنَ القرآنِ الكريمِ

الدكتور/ تيســـــير النســـور
الدكتور/ محمد أحمد صوالحة
جامعة البلقاء التطبيقية
كلية الأميرة عالية الجامعية

ملخص البحث:

يتناول هذا البحث بالدراسة العدول البلاغي في الآي القرآني، والعدول : توجيه الكلام وقوله على غير ما وضع له في الأصل، ومن صور العدول البلاغي (إنزال الإنشاء منزلة الخبر)، إذ تضمن النص القرآني الكثير من الآيات التي جاءت وفق هذا الأسلوب.

وتبرز قيمة الدراسة في الكشف عن الحكمة من إيراده في النص القرآني الكريم، ومن ثم بيان المعاني المتوخاة من وراء هذا العدول، والكشف عن دلالته الحقيقية، ثمَّ ملاحظة الأساليب التي استُخدمت للتعبير عن الصيغة الخبرية المتبطنة للمعنى الإنشائي.

وقد سار البحث وفق منهج استقرائي تحليلي للآيات القرآنية التي ورد فيها هذا الأسلوب وتفسيرها وتوجيهها مستعينا بما تضمنته كتب التفسير من توجيهات، وعرض وجهات النظر المختلفة بين المفسرين، والترجيح فيما بينها للخلوص إلى القيمة الحقيقة لدلالة هذا الأسلوب القرآني الفريد.

مدخل :

نص المظان البلاغية هو :" تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة، وما يتصل بها من الاستحسان وغيره، ليتحرز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره ".[1]

ولعلم "المعاني أصول وقواعد يعرف بها أحوال الكلام العربي التي يكون بها مطابقا لمقتضى الحال، بحيث يكون وفق الغرض الذي سيق له، فذكاء المخاطب: حال تقتضي إيجاز القول...وغباوته: حال تقتضي الإطناب والإطالة... ويكون كلامك في الحالتين بليغا ".[2]في ما يراه أحمد الهاشمي (١٣٦٢)هـ .

فعلم المعاني هو العلم الذي يهتم بإيصال المعنى المراد من كلام المتكلم، وعلى المتكلم أن يعلم بأحوال المخاطب، وبناء على هذا العلم يصدر كلامه، فكما قيل: لكل مقام مقال.

١ السكاكي، مفتاح العلوم، ضبطه: نعيم زرزور، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧، ص:١٦١
٢ أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، ط١٢، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ص: ٤٦

ويشير الهاشمي إلى واضع علم المعاني وهو الشيخ عبد القاهر الجرجاني (٤٧١)هـ [١]، فقد أفرد الشيخ لهذا العلم كتاباً خاصاً عرف باسم (دلائل الإعجاز).

أمّا في الحديث عن أهمية علم المعاني فقد اعتبره البلاغيون الأساس في الكلام لسببين، هما:

السبب الأول هو: معرفة إعجاز القرآن الكريم من جهة ما خصَّه الله به من جودة السبك، وحسن الوصف، وبراعة التركيب، ولطف الإيجاز.

أمّا السبب الثاني: فمن أجل الوقوف على أسرار البلاغة والفصاحة في منثور العرب ومنظومه.[٢]

وتظهر وظيفة علم المعاني جلية لـ " إبراز الدلالة المركزية للمعنى، وبيان قوته، وتبدو بعض الدلالات الجزئية شاردة بعيدة عن الدلالة المركزية، ولكن السياق يبرزها وهي تمسك بالدلالة البعيدة الشاردة لتعيدها إلى سياقها المتفاعل مع الدلالات الأخرى، فندرك بذلك قوة العلاقات وقوتها في الوظائف الدلالية،

١ انظر: أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة، ص: ٤٧
٢ د.عاطف فضل، تركيب الجملة الإنشائية في غريب الحديث (دراسة وصفية تحليلية)، ط١، عالم الكتب الحديث، إربد، ٢٠٠٤، ص:٣٨

هذه الروابط التي تبدأ بدلالة الوظيفة البلاغية الصغرى، كالتنبيه والتعظيم، وتفاعلها ونموها ضمن دلالة الوظيفة البلاغية الكبرى".[1]

وهذه الوظيفة لعلم المعاني تتَّضح عند الحديث عن الخبر والإنشاء وهو من مباحث علم المعاني. ويمكن القول بأن هذه الوظيفة التي يؤديها علم المعاني تبرز بشكل لافت في تأدية الكلام وفق أساليب الخبر والإنشاء المتعددة

ويتناول هذا العلم جملة من المباحث والأساليب البلاغية هي:

١- الفصل والوصل ٢-القصر والاختصاص

٣- الإيجاز والإطناب والمساواة ٤- الخبر والإنشاء.

ويتناول هذا البحث بالدراسة بلاغة إنزال الخبر منزل الانشاء ، وما فيهما من أسرار في التعبير والأسلوب والصياغة.

١ أحمد حماد الصانع، من وظائف البلاغة العربية في العصر الحاضر، رسالة ماجستير مقدمة إلى: كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، الأردن، ٢٠٠٨، ص:٥٩

الخبر والإنشاء:

اعتبر السكاكي أن كلام العرب شيئان هما: الخبر والطلب.[1] والطلب هو الإنشاء نفسه.

١- الخبر:

يقول عبد القاهر الجرجاني: " اعلم أنَّ معاني الكلام كلَّها معان لا تتصور إلا فيما بين شيئين، والأصل والأول هو (الخبر)، وإذا أحكمت العلم بهذا المعنى فيه، عرفته في الجميع".[2]

فمن قول الجرجاني يُستدل بأن الخبر هو أصل الكلام وأساسه. فما هو الخبر؟

أ- مفهومه:

عرّف السكاكي الخبر فقال: إنَّ " الخبر هو الكلام المحتمل للصدق والكذب، أو التصديق والتكذيب "[3]

ويرى قدامة بن جعفر (٣٣٧)هـ أن الخبر منه يقين ومنه تصديق، فاليقين هو ما يلزم العقل الإقرار بصحته، كالأخبار التي ألزمنا الله بها في كتابه من

١ انظر: السكاكي، مفتاح العلوم، ص: ١٦٤
٢ الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود محمد شاكر، ط٥، مكتبة الخانجي، القاهرة، ٢٠٠٤، ص: ٥٢٦- ٥٢٧
٣ السكاكي، مفتاح العلوم، ص: ١٦٤

كلام الأنبياء والرسل، فنحن لم نشاهدهم ولم نسمع ما قالوه، فهذه الأخبار نُلزم عقولنا بتصديقها يقينا.[١]

أمّا في التصديق فيقول: " هو ما تقتنع النفوس به، وإن كان في الممكن أن يقع غيره أوكد من موقعه."[٢]

ويبين العلوي (٧٤٩)هـ حقيقة الخبر، وهي: " إسناد أمر إلى غيره، إمّا على جهة المطابقة أو خلافها "[٣]

ويقول بسيوني فيود إن " الخبر هو الكلام الذي يحتمل الصدق والكذب لذاته، نحو قولنا: (جاء زيد) فهذه الجملة أفادت نسبة المجيء إلى زيد والحكم به عليه، فإن وافق ذلك الواقع كان الخبر صادقا، ووصف الكلام بالصدق، وإن خالفه كان كاذبا، ووصف الكلام بالكذب "[٤].

ويجوّز أبو هلال العسكري " أن يكون الكلام الواحد كذبا محالا، وهو قولك: رأيت زيدا قائماً قاعداً، ومررت بيقظان نائم، فتصل كذبا بمحال، فصار الذي

١ انظر: قدامة بن جعفر، نقد النثر، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٢، ص: ٢٨
٢ المرجع السابق، ص: ٣٤
٣ العلوي، كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، دار الكتب الخديوية، مصر، ١٩١٤، ج٣، ص:٢٥١
٤ د.بسيوني عبد الفتاح فيود، علم المعاني دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني، ط٢، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٤، ص:٣١

هو الكذب هو المحال بالجمع بينهما، وإن كان لكل واحد منهما معنى على حياله؛ وذلك لمّا عقد بعضهما ببعض حتى صار كلاماً واحداً ".[1]

ويشير بسيوني فيود إلى أن الخبر قد يوصف " بالصدق فحسب أو بالكذب فقط، ولكن ليس لذات الكلام من حيث هو كلام خبري، وإنما باعتبار أسباب أخرى خارجة عن نطاق الجملة، تؤيد صدقه أو كذبه، فأخبار القرآن الكريم لا تحتمل إلاّ الصدق باعتبارها كلام الله جلّ وعلا، وإن كانت تحتمل الصدق والكذب من حيث هي أخبار، بصرف النظر عن قائلها...فقول اليهود: عزير ابن الله، وقول النصارى: المسيح ابن الله، كلام لا يحتمل إلا الكذب، لأن الواقع يكذبه ويبطله ".[2]

ويذكر السكاكي أن الخبر يجري في اتجاهين:

اتجاه نفيد المخاطب من الخبر الملقى عليه، ويسمى (فائدة الخبر) نحو: زيد عالم، لمن ليس واقفا على ذلك. واتجاه يسمى (لازم فائدة الخبر) نحو قولك لمن حفظ القرآن الكريم: قد حفظت القرآن الكريم.[3]

١ أبو الهلال العسكري، كتاب الصناعتين، ص: ٧٠
٢ د.بسيوني فيود، علم المعاني، ص: ٣١
٣ انظر: السكاكي، مفتاح العلوم، ص: ١٦٦

ويشير الهاشمي إلى أنّ الاتجاهين السابقين هما أغراض للخبر، فيُلقى الخبر لغرض إفادة المخاطب بالحكم الذي وُجد في الجملة إن كان جاهلا وهذا (فائدة الخبر) نحو الدين المعاملة، أو يُلقى الخبر لغرض إفادة المخاطب بأن المتكلم عالم بالخبر، وهذا هو (لازم الفائدة)، فهو يلزم في كل خبر بأن يكون المخبر به لديه علم بالخبر.[1]

ويخرج الخبر عن الغرضين السابقين إلى أغراض أخرى تستفاد من خلال القرائن الموجودة في الخبر، ويمكن العودة إلى كتاب جواهر البلاغة – مثلا – للنظر في هذه المعاني؛[2] إذ لا داعي لذكرها في هذا المقام.

ب–أنواعه:

ينبغي على صاحب الخبر أن يكون على دراية بحال المخاطب – من علم أو جهل بالخبر– وذلك عند إلقاء الخبر، لذلك قسم البلاغيون الخبر إلى ثلاثة أنواع وفق حال المخاطب:

١–الخبر الابتدائي.

٢–الخبر الطلبي.

---

١ انظر: أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة، ص: ٥٤
٢ انظر: المرجع السابق، ص: ٥٥

٣-الخبر الإنكاري.

ويعرّف حميد ثويني النوع الأول من أنواع الخبر وهو " أن يكون المخاطب خالي الذهن بمضمون الخبر، وفي تلك الحالة يأتي إليه الخبر خاليا من أدوات التوكيد"[١]، ويكثر هذا النوع في حديث الناس، نحو: العلم نور، والجهل ظلام.

ويتابع حميد ثويني، ويقول في النوع الثاني من أنواع الخبر: " هو أن يكون المخاطب مترددا في الحكم شاكا فيه، ويريد الوصول إلى اليقين في معرفته، وفي تلك الحالة ينبغي توكيده له، لينفي الشك عنه ويستقر اليقين في نفسه "[٢]، ومثال هذا النوع قوله تعالى: { **قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ، الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ**} (المؤمنون: ١-٢).

أمّا في النوع الثالث فيقول حميد ثويني فيه : " أن يكون المخاطب منكرا لحكم الخبر، وفي تلك الحالة يجب أن يؤكد الخبر بمؤكد أو أكثر حسب إنكاره قوة وضعفا "[٣]، ومثال هذا قولك: لأُكرمَنَّ المجدَّ.

---

١ أ.د.حميد آدم ثويني، البلاغة العربية المفهوم والتطبيق، ص١، دار المناهج للنشر والتوزيع، عمّان، ٢٠٠٧، ص:٧٢

٢ المرجع السابق، الصفحة نفسها.

٣ المرجع السابق، الصفحة نفسها.

٢ – الإنشاء:

أ– مفهومه:

عرّفه صاحب مفتاح العلوم بقوله: " حقيقة معلومة مستغنية عن التحديد..وهي أن لا ارتياب في أن الطلب من غير تصور إجمالا أو تفصيلا لا يصح، وأنه يستدعي مطلوبا لا محاله، ويستدعي فيما هو مطلوبه أن لا يكون حاصلا وقت الطلب، وليكن هذا المعنى عندك "[١]

أمّا صاحب الطراز فيقول في الإنشاء: " هو استدعاء أمر حاصل ليحصل "[٢] ويذكر فضل عباس أن "الإنشاء ما لا يحتمل صدقاً ولا كذباً..."."[٣]

ويشير السكاكي إلى أن الإنسان قد يتمنى أو يستفهم أو يأمر أو ينهى أو ينادي، وذلك حسب علمه بأمر ما[٤]، وهذا الكلام يوافق تحديد العلوي لمعنى الإنشاء، فهذه الأساليب يستخدمها الإنسان ليطلب من خلالها أمراً ما.

ب–أنواعه:

١ السكاكي، مفتاح العلوم، ص:٣٠٢
٢ العلوي، كتاب الطراز، ص: ٢٨٠
٣ أ. د.فضل حسن عباس، البلاغة فنونها وأفنانها، ط ١١، دار الفرقان للنشر والتوزيع، عمّان،٢٠٠٧، ج١، ص:١٥١
٤ انظر: السكاكي، مفتاح العلوم، ص: ١٦٥

يرى العلوي أن الإنشاء ينقسم إلى:

"طلب سلبي و طلب إيجابي، والطلب الإيجابي هو الأمر والتمني، والطلب السلبي هو النهي، وكلا الأمرين وارد في كتاب الله تعالى، فإنه مملوء من الأمر والنهي وغيرهما "[1]

أمّا أحمد الهاشمي فيرى أن الإنشاء " إنشاء غير طلبي: ما لا يستدعي مطلوبا غير حاصل وقت الطلب، ويكون في : صيغ المدح والذم، وصيغ العقود والقسم، والتعجب، والرجاء، وإنشاء طلبي: وهو الذي يستدعي مطلوبا غير حاصل في اعتقاد المتكلم وقت الطلب. وأنواعه خمسة: الأمر، والنهي، والاستفهام، والتمني، والنداء. "[2]

ويقول بسيوني فيود: إن قولك " حافظ على الصلاة، اقرأ القرآن، لا تقرب الفواحش، أين محمد؟، ليت الشباب يعود، يا خالد، هذه أساليب إنشائية، القصد منها إحداث الشيء وإيجاده ابتداء، ولا يقصد وصفها بالصدق أو بالكذب، ولذا قالوا: الإنشاء قول لا يحتمل الصدق والكذب."[3]

١ العلوي، كتاب الطراز، ص: ٢٨٠
٢ أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة، ص: ٧٥-٧٧
٣ د.بسيوني فيود، علم المعاني، ص: ٣٢

وقال صاحب الطراز: إن " الأمر والنهي والاستفهام والتمني والعرض والدعاء والنداء هذه ضروب سبعة...تختص في الحقائق المعنوية، وما يتعلق بها من الخصائص القرآنية، التي من أنعم فيها نظره وفكره واستجمع في تقريرها خاطره، أطلعته على حقائق محجوبة تحت أستار، وكشفت له عن وجوه الإعجاز، ومكنها في نفسه عن تحقق واستبصار، وألحقت نور البصيرة بمرأى البصر في ضوء النهار، فإن ملاك الأمر في ذلك كله مؤسس على علم المعاني وعلم البيان ".[1]

وفي نهاية الحديث عن الإنشاء لا بدّ من الإشارة إلى أن الإنشاء يكثر في الأدب العربي– شعره ونثره– فقد ذكر عبد الفتاح لاشين أن الشعراء يميلون إلى افتتاح قصائدهم بالجمل الإنشائية من عرض وتمنٍ واستفهام، والسبب في ذلك أن الإنشاء مراده إحداث لوعة في النفس وإثارة حزن وألم وحسرة فيها، وهذا يتفق مع طبيعة الشعر الذي يرمي إلى التأثير بالنفس باستخدام أساليب الإنشاء.[2]

إنزال الإنشاء منزلة الخبر:

١ العلوي، كتاب الطراز، ج٣، ص: ٢٨١
٢ انظر: عبد الفتاح لاشين، المعاني في ضوء أساليب القرآن الكريم، دار الفكر العربي، القاهرة، ٢٠٠٢، ص: ١٤٢

يقول ابن الأثير (٦٣٠)هـ : " اعلم أن الأصل في المعنى أن يحمل على ظاهر لفظه، ومن يذهب إلى التأويل يفتقر إلى دليل، كقوله تعالى: {**وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ**} (المدثر: ٤)، فالظاهر من اللفظ (الثياب) وهو ما يلبس، ومن تأوّل ذهب إلى أن المراد هو القلب لا الملبوس، وهذا لا بدَّ له من دليل،لأنه عدول عن ظاهر اللفظ، فالمعنى المحمول على ظاهره لا يقع في تفسيره خلاف، والمعنى المعدول عن ظاهره إلى التأويل يقع فيه الخلاف، إذ باب التأويل غير محصور، والعلماء متفاوتون في هذا، فإنه قد يأخذ بعضهم وجها ضعيفا من التأويل فيكسوه بعبارته قوة وتميزه على غيره من الوجوه القوية. "[١]

ومن أوجه العدول في البلاغة إنزال الإنشاء منزلة الخبر، فقد قال عبد الحفيظ مراح: إن الخبر والإنشاء " إحدى أهم صور خروج التعبير عن النمط المألوف الذي يطرد عليه الاستعمال اللغوي...وإن أي كلام ننشئه، إنما نفعل ذلك بهدف تقرير حقيقة أو الإخبار عن قضية أو التحدث عن أمر لم يحصل بعد، نطلب تحقيقه أو ننهى عنه أو نتمناه أو نستخبر عنه أو نناديه. "[٢]

١ ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: د.أحمد الحوفي و د.بدوي طبانه، دار نهضة مصر للطبع والنشر، الفجالة- القاهرة، ج١، ص: ٦٢- ٦٣
٢ عبد الحفيظ مراح، ظاهرة العدول في البلاغة العربية مقاربة أسلوبية، ص: ٥٦

ومن هنا يكون الحديث عن (التعبير عن الأسلوب الإنشائي بأسلوب خبري). ومن خلال ما ذكر أن الكلام إمّا خبر وإمّا إنشاء ندرك أن الخبر والإنشاء لا يكونان في كلمة؛ فإذا أردنا أن نتكلم نأتي بجملة خبرية أو إنشائية. وبهذا يكون القصد من العنوان (إنزال الإنشاء منزلة الخبر) هو إنزال الجمل الإنشائية منزلة الجمل الخبرية)، أي التعبير عن المعاني الإنشائية التي لا تحتمل الصدق أو الكذب بأنواعها (أمر واستفهام ونهي وتمني ونداء) بجمل الخبرية حيث إنها جمل عادية تقصد الإخبار بأمر ما.

وقد اهتم البحث في الجمل الخبرية التي تأتي بمعنى الجمل الإنشائية؛ لما للخبر من أهمية يكشفها عبد القاهر الجرجاني بقوله: إن " (الخبر) وجميع الكلام معانٍ ينشئها الإنسان في نفسه، ويصرفها في فكره، ويناجي بها قلبه، ويراجع فيها عقله، وتوصف بأنها مقاصد وأغراض، وأعظمها شأنا الخبر فهو الذي يتصور بالصور الكثيرة، وتقع فيه الصناعات العجيبة، وفيه يكون الأمر الأعم المزايا التي بها يقع التفاضل في الفصاحة "[1]

وإنزال الإنشاء منزلة الخبر تحدث عنه البلاغيون كثيرا، لكن الأمر المراد هنا هو البحث عن الحكمة من وجود هذا العدول البلاغي. وقد قال السكاكي: " اعلم

١ الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: ٥٢٨

أن الطلب كثيرا ما يخرج على مقتضى الظاهر وكذلك الخبر، فيذكر أحدهما في موضع الآخر، ولا يصار إلى ذلك إلا لتوخي نكت قلّما يفتطن لها من لا يرجع إلى دربه في نوعنا هذا، ولا يعض فيه بضرس قاطع، والكلام بذلك متى صادف متممات البلاغة افترَّ لك عن السحر الحلال بما شئت"[1].

والمعاني المتوخاة من إنزال الإنشاء منزلة الخبر تتبين من خلال ما ذكره القزويني (٧٣٩)هـ في شرح التلخيص إذ قال: " قد يقع الخبر موقع الإنشاء، إمّا للتفاؤل، نحو : زين الله في عينيك العدل والإنصاف، أو لإظهار الحرص في وقوعه، والدعاء بصيغة الماضي من البليغ يحتمل التفاؤل وإظهار الحرص، أو للاحتراز عن صورة الأمر، أو لحمل المخاطب على المطلوب "[2]

ثمَّ يأتي التفتازاني (٧٩٢)هـ شارحاً لهذه المعاني ومفصلا لها على النحو الآتي[3]:

١- التفاؤل: ويكون بلفظ الماضي للإشارة إلى أنه تحقق، فهو يخبر عنه، كقولك: وفقك الله للتقوى، (وفقك) فعل ماض، المراد منه فعل الأمر (وَفِقْ).

١ السكاكي، مفتاح العلوم، ص: ٣٢٣
٢ القزويني، شرح التلخيص في علوم البلاغة، شرحه: محمد هاشم دويدري، ص٢، دار الجليل، بيروت، ١٩٨٢، ص: ٩١
٣ انظر: التفتازاني، الممطول شرح تلخيص مفتاح العلوم، تحقيق: د.عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ج٣، ص: ٤٣٢-٤٣٣

٢- إظهار الحرص في وقوع الأمر، فإن الشخص إذا عظمت رغبته في شيء كثر تصوره إياها، كقولك: رزقني الله لقاءك.

٣- الاحتراز عن صورة الأمر، وفي هذا المعنى يورد البلاغيون المثال الآتي: قول العبد للمولى: ينظر المولى إليّ ساعة، دون أن يقول انظر إليّ.

٤- حمل المخاطب على المطلوب، بأن يكون المخاطب ممن لا يحب أن يكذب الطالب: أي ينتسب إلى الكذب، كقولك لصاحبك الذي لا يحب تكذيبك: تأتيني غدا، مقام ائتني، تحمله بألطف وجه على الإتيان؛ لأنه إن لم يأتيك غدا صرت كاذبا من حيث الظاهر لكون كلامك في صورة الخبر.

٥- المبالغة في الطلب ليدل على سرعة الامتثال والاستعجال في تحصيل المطلوب.

وهذه المعاني أو الدلالات كثيرا ما تكون في الكلام العادي، فقد يعبر أحدنا بهذه المعاني دون معرفته بدلالة ما قاله أو ما سمعه.

ومن خلال ما سبق يظهر أن العدول إلى الصيغة الخبرية ليس شرطا أن يكون باستخدام الفعل الماضي- كما أشار القزويني والتفتازاني- فحسب، بل قد يأتي العدول باستخدام الفعل المضارع، فقولك: رحمه الله، جملة فعلية،(فرَحِمَ) فعل ماضٍ حمل صيغة الأمر من باب الدعاء، والمراد: اللهم ارْحَمه.

وكذلك القول في: يرحمه الله، و(يرحَمُ) فعل مضارع حمل صيغة الأمر من باب الدعاء أيضاً، والمراد: اللهم ارحمه.

لكن في التعبيرين دلالات خفية، وفروق دقيقة، فصيغة الماضي كانت لقصد التفاؤل في إظهار الدعاء، فقولك: رحمه الله، كأنك تحققت بأن الله قد أنزل الرحمة على المخاطب.

أمّا في صيغة المضارع فتكون لدلالة الاستمرارية في نزول رحمة الله على المخاطب. لذلك يرى الباحث أن جمله: (رحمه الله) جملة تقال للميت، وجملة: (يرحمه الله) تقال للحي والميت على السواء؛ ذلك لما تحمله من استمرارية في نزول رحمة الله على عباده.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن أكثر أنواع الأساليب الإنشائية التي تبرز عند العدول إلى الصيغة الخبرية تأتي في: الأمر والنهي؛ كون هذين الأسلوبين هما اللذان يتفقان مع معنى الدلالات السابقة.

غاية إنزال الإنشاء منزلة الخبر:

إنَّ إنزال الإنشاء منزلة الخبر يُحدثُ في نفس المتلقي أبعاداً فكرية ونفسية، فهذا النوع من العدول ينتج عناصر من الدهشة في نفس المتلقي.

ويذهب محمد أبو موسى إلى أنّ " الإنشاء قد يرد في لفظ الخبر، وأن له موقعا مستجادا...والقول بمجيئه في لفظ الخبر لا يعني أن المسألة مسألة لفظ، وأن الإنشاء بقي كما لو كان في لفظ الإنشاء...فالأمر أدق من هذا لأن الذي يحدث تغيير في الحس بالمعنى والشعور به. ولو تأملت لوجدت الحقيقة النفسية المعبَّر عنها بلفظ الإنشاء، غير الحقيقة المعنوية والنفسية المعبر عنها بلفظ الخبر، فقولك: (ارحم اللهم زيدا) دعاء منك لزيد بالرحمة، وقولك: (رحم الله زيدا) دعاء منك له بالرحمة أيضا، ولكن الرغبة هنا أكثر إلحاحا، وأشد تعلقا بالنفس، وكأنها لقوة إحاطتها بالقلب أوهمت أنها وقعت، وأنّ الله قد ناله برحمته، وأنت تخبر عن هذه الحالة...وكل ما هو من هذا الباب ترى صيغة الخبر تطوي في معاطفها أحلاماً وهواجس وغوامض لا تجدها في صيغة الإنشاء."[1]

وتحت عنوان (وظائف الأسلوب الخبري موضع الأسلوب الإنشائي) يجد أحمد الصانع عند دارسي البلاغة العربية بعدا نفسيا استشعره من خلال الوظائف

١ محمد محمد أبو موسى، دلالات التراكيب دراسة بلاغية، ط٣، مكتبة وهبة، القاهرة، ٢٠٠٤، ص: ٢٦٥- ٢٦٦

الدلالية، فهذه الوظائف ملازمة للنفس الإنسانية ومرتبطة بوجدانه، فهي تعمل على إثارة التساؤلات عند استخدام صيغ الأمر والنهي في دلالات طلبية على عكس رغبات المتلقي.[1]

وكثيرة هي التعابير التي تظهر في أقوال الناس، وتتواجد فيها المعاني السامية، لكن لا يوجد تعبير أبلغ من تعبير كلام الله عزَّ وجلَّ، إذ ذكر تعالى في كتابه المجيد الكثير من الآيات التي عدل فيها عن صيغ الإنشاء إلى صيغ الخبر.

ومن المعلوم أن القرآن الكريم احتوى على أحكام تكليفية وأخرى كونية، فالأحكام التكليفية ظهرت بالصورة الإنشائية، فهي أحكام واجبة التنفيذ، والأحكام الكونية ظهرت بالصورة الخبرية، لكن القرآن الكريم جاء في بعض الآيات التي تضمَّنت الأحكام التكليفية وأظهرها بالصورة الخبرية؛ وذلك لحكمة بالغة أرادها الخالق جلَّ ذكره، وتتبين هذه الحكم عند عرض هذه الآيات.

ويخرج أحمد الصانع بنتيجة استحسنها الباحث، وهي في " تعدد الخبر توسع أفقي في نظام البلاغة وأساليبها، ممّا يؤدي إلى بسط الوظيفية الدلالية للكلام وإنمائها، كما في قوله:{ **وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ، ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ، فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ**

١ انظر: أحمد حماد الصانع، من وظائف البلاغة العربية في العصر الحاضر، ص: ٦٧

} (البروج:١٤– ١٦)، وهناك وظيفة أخرى تتطلبها حالة السامع النفسية والذهنية، بحيث الوظيفة الدلالية، كما في قوله تعالى: { **هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**} (الحديد:٣)"[١]

والذي يتبين من النتيجة السابقة أن الإنسان إذا توسع في كلامه الخبري دون استخدام الإنشاء، كان هذا الكلام الخبري دالا على معاني إنشائية، فقوله تعالى:{ **وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ، ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ، فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ** } (البروج:١٤– ١٦)،**كلها صفات لله تعالى ذكرت بالأسلوب الخبري** وفيها لا يطلب من المتلقي التصديق أو التكذيب، بل يطلب منه أن يتأمل في هذا القول ويكشف باطنه، فالله تعالى أظهر دلالة خارجية، وأراد دلالة داخلية، وعلى من يعشق كلام الله تعالى أن يقوم بكشف الدلالة الداخلية.

ثمَّ يرى أحمد الصانع أن الدلالة المسيطرة في استبدال الأسلوب الخبري بأسلوب إنشائي، هي دلالة التنفيذ والمسارعة، ويكون هذا في الدلالة العامة، أمّا في الدلالة الخفية والعميقة فتكون دلالة التجدد والاستمرارية.[٢] ويتفق الباحث مع هذه النتيجة التي خرج بها أحمد الصانع، خاصة إن كانت في أوامر الله ونواهيه.

١أحمد الصانع، من وظائف البلاغة العربية في العصر الحاضر ، ص: ٦٧-٦٨
٢ انظر: المرجع السابق، ص:٦٨

وفيما يأتي عرض لبعض النماذج من الآيات القرآنية التي تجلى فيها هذا الأسلوب الفريد، نحاول فيها الكشف عن الحكم البلاغية، والنكت الدلالية وراء استعمال هذا الأسلوب القرآني البليغ.

أولا: قال تعالى:{ **قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ** } (يوسف:٩٢)

جاء العدول في هذه الآية إلى الصيغة الخبرية باستعمال الفعل المضارع (لا تثريب)، للدلالة على التفاؤل في تحقيق استجابة الدعاء.

قال أبو حيان (٧٤٥)هـ: " {لَا تَثْرِيبَ} لا لوم ولا عقوبة "١، وأصل التثريب كما ذكر الآلوسي: " من الثرب وهو الشحم الرقيق في الجوف وعلى الكرش، وصيغة التفعيل للسلب أي إزالة الثرب كالتجليد والتقريع "٢. ويظهر معنى السلب والإزالة من خلال إزالة اللوم وسلبه من نفوس إخوة يوسف –عليه السلام –كما سيأتي في معنى الآية.

ويشير ابن عاشور(١٣٩٣)هـ أن {لَا تَثْرِيبَ} قول يجري مجرى المثل، مثل قولهم: لا بأس.٣ فقول يوسف–عليه السلام–{لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ} أشعر إخوته

١ أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٣، ج٥، ص: ٣٣٨
٢ الآلوسي، روح المعاني، ج١٣، ص: ٥٠
٣ انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، الدار التونسية، تونس، ١٩٨٤، ج١٣، ص: ٢٤٦

بالراحة والطمأنينة، ولزيادة هذا الشعور دعا لهم بالمغفرة، فقال: {يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ}، قال الطبري: " هذا دعاء من يوسف لإخوته بأن يغفر الله لهم ذنبهم فيما أتوا إليه وركبوا من الظلم "١.

ويؤكد الزمخشري بأن {يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ} هو دعاء نقوله بالماضي على غفر الله لك، وبالمضارع يغفر الله لك، ومنه قول المشمت: (يهديكم ويصلح بالكم)٢، ومن هنا يكون العدول عن التعبير الإنشائي فقوله: {يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ} جملة خبرية خرجت لمعنى الأمر، ويكون التقدير على الأمر: اغفر يا الله لهم. وسيدنا يوسف لقصد التفاؤل وإدخالا للسرور في نفوس إخوته عدل عن استخدام فعل الأمر وجاء بالفعل المضارع. فالوظيفة الخارجية للعدول استخدام المضارع ليدل على التفاؤل النفسي في تحقيق المغفرة من الله تعالى، أمّا الوظيفة الداخلية تكون في قصد الأمر ليدل ذلك على الحاجة الماسة لهذه المغفرة، فإخوة يوسف–عليه السلام– قصدوا التوبة لله ، وهاهم الآن يطلبون المغفرة لترتاح قلوبهم من الذنوب التي فعلوها بحق يوسف–عليه السلام–.

وفي قوله: {يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ}، قال الشعراوي (١٤١٨)هـ : " ولقائل أن يتساءل: لماذا قال يوسف ذلك، وقد يكونون قد استغفروا الله من قبل؟ ونقول: إنَّ دعوة

١ الطبري، جامع البيان، ج١٣، ص: ٣٣١
٢ انظر: الزمخشري، الكشاف، ج٣، ص: ٣٢٢

يوسف بالمغفرة لهم جاءت في حدود معرفته، ولتصفية النفوس مما شابها بهذا اللقاء، وقد قال يوسف ذلك وهو واثق من إجابة دعوته، لأنه قد غفر لهم خطأهم القديم وعفا عنهم والله أولى منه بالعفو عنهم."[1]

وإخوة يوسف–عليه السلام– شعروا براحة النفس بدءا من كلام أبيهم في قوله تعالى: { يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ} (يوسف:٨٧)، فقد قال محيي الدين درويش(١٤٠٢)هـ: " استعارة الروح للرحمة، وإيضاحه: أن الروح مصدر بمعنى الرحمة، وأصله استراحة القلب من غمِّه، والمعنى: لا تقنطوا من راحة تأتيكم من الله."[2]، وازدادت راحة نفوسهم عند عفو سيدنا يوسف عنهم، وطلب المغفرة من الله تعالى لهم.

ومما لمحه الباحث في الآية الكريمة أن يوسف–عليه السلام– عندما دعا لإخوته بالمغفرة ختمت الآية بالإشارة إلى رحمة الله عزّ وجلّ، فقد وجد في كتاب الله مواطن كثيرة قدمت فيها المغفرة على الرحمة، ويبين السبب في ذلك فضل عباس وسناء عباس، فيقولان: " المغفرة ستر للذنوب، أمّا الرحمة فتفضل وإنعام

١ الشعراوي، تفسير الشعراوي، مجمع البحوث الإسلامية، مج١١، ص: ٧٠٦٥-٧٠٦٦
٢ محيي الدين درويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه، ط٧، دار اليمامة، دمشق- بيروت، ودار ابن كثير، دمشق- بيروت، ١٩٩٩، مج٤، ج١٣-١٦، ص: ٣٥-٣٦

زائد على مغفرة الذنوب لذا قدمت المغفرة على الرحمة، والتخلية مقدمة على التحلية."[1] ، فإخوة يوسف في حالة طلب التوبة، والذي يقصد التوبة يريد المغفرة من الذنوب أولا ثمّ الرحمة. وهذا هو التفاؤل الذي أدخل في نفوسهم بالتدريج حتى شعروا بأنْ لا لوم عليهم، وأنَّ الله قد قبل توبتهم وغفر لهم.

ثانيا: قال تعالى: { وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} (البقرة:٢٣٣)

استُعمِل في هذه الآية الفعل المضارع لمعنى الأمر؛ إذ تحدَّث المولى عزّ وجلّ عن إرضاع الوالدات لأولادهنَّ بعد عملية الطلاق، ويظهر العدول إلى الخبر في بداية الآية الكريمة. فقد قال الزمخشري: " {يُرْضِعْنَ} مثل {يَتَرَبَّصْنَ}

١ أ. د.فضل حسن عباس، د.سناء فضل عباس، إعجاز القرآن الكريم، ط٧، دار النفائس للنشر والتوزيع، عمّان، ٢٠٠٩، ص: ٢٠٦

في أنه خبر في معنى الأمر المؤكد.. فإن قلت: فما بال الوالدات مأمورات بأن يرضعن أولادهن؟ قلت: إمّا أن يكون أمرا على وجه الندب، وإمّا على وجه الوجوب، إذا لم يقبل الصبي إلا ثدي أمه، أو لم توجد له ظئر[1]، أو كان الأب عاجزا عن الاستئجار."[2]

ويكون الأمر في {يُرْضِعْنَ} إمّا على وجه الاستجابة والتلبية، وإمّا على وجه الوجوب والإلزام، وفي الوجه الأول من الأمر يكون حسب حالة الأم وإقبالها على ولدها، وهذا مرتبط بمشاعرها اتجاهه، وعطفها وحنانها عليه، أمّا في الوجه الثاني فيكون حسب حالة المولود وذلك إذا لم يتقبل ثدي الظئر، عندها تؤمر المرأة بإرضاع ولدها على وجه الوجوب والامتثال.

ورأى أبو حيان أنَّ قوله: {يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ} خبر في معناه، باعتبار أن الله شرع بأحقية إرضاع الوالدات لأولادهن إن كانت الوالدة على ذمة الزوج أو طُلِّقت، فالإرضاع من خصائص الولادة لا من خصائص الزوجية.[3]

وقال القرطبي في تفسيره: " اختلف الناس في الرَّضاع، هل هو حقٌّ للأم أم حقٌّ عليها؟ واللفظ محتمل، لأنه لو أراد التصريح بكونه عليها لقال: وعلى

---

١ انظر: ابن منظور، لسان العرب، مج٤، ج٣١، مادة: ظَأَرَ، ومنه الظئر: العاطفة على ولد غيرها، والمرضعة له.
٢ الزمخشري، الكشاف، ج١، ص: ٤٥٥
٣ انظر: أبو حيان، البحر المحيط، ج٢، ص: ٢٢٢

الوالدات رَضاعُ أولادهنَّ، كما قال تعالى: {وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ} ولكن هو عليها في حال الزوجية، وهو عُرف يلزم إذ قد صار كالشرط...وعليها إن لم يقبل غيرها واجب، وهو عليها إن عدم الأب لاختصاصها به."١

ويشير الشعراوي بأنّ الله تعالى " لم يأتِ بصيغة الأمر فلم يقل: يا والدات أرضعن، لأن الأمر عرضة لأن يطاع وأن يعصى، لكن الله أظهر المسألة في أسلوب خبري على أنها واقع طبيعي ولا يخالف "٢.

وبعد مراجعة أقوال المفسرين نجد أنهم أخرجوا جملة {يُرْضِعْنَ} لمعنى الأمر على دلالتين، الأولى: للندب، والثانية: للوجوب، ولم يرجح أحد منهم وجها على الآخر؛ لأن كل وجه كان له ما يثبت صحته، كما ذكر سابقا. لكنّ ابن عاشور رجَّح معنى الندب، فقال: " {يُرْضِعْنَ} خبر مراد به التشريع وإثبات حق الاستحقاق، وليس بمعنى الأمر والإيجاب عليهن، لأنه قال تعالى: {وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا} فإن الضمير شامل للآباء والأمهات على وجه التغليب، فلا دلالة في الآية على إيجاب إرضاع الولد على أمه، ولن تدل على أن ذلك حق لها."٣

١ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج٤، ص: ١٠٧
٢ الشعراوي، تفسير الشعراوي، مج٢، ص: ١٠١٩
٣ ابن عاشور، التحرير والتنوير، دار سحنون، مج١، ج٢، ص: ٤٣٠

ويميل الباحث في رأيه مع ابن عاشور، فجملة {يُرْضِعْنَ} جاءت لمعنى الأمر من باب التغليب والندب، وذلك تماشيا مع الصورة النفسية والعاطفية للأم، فالأم المرضعة ترى أن إرضاع ولدها ليس بالأمر الذي يفرض عليها، فهي تسارع إلى إرضاع ابنها دون أن تؤمر بذلك.

والله عز شأنه عدل عن صورة الأمر إلى صورة الخبر لحكمة منه كونه يعلم بالحنان الذي أوجده في قلب الأم والذي تكنّه لأبنائها، لذلك قال ابن عاشور: " صرح بالمفعول {أَوْلَادَهُنَّ} مع كونه معلوما وفي ذلك تذكير لهنَّ بالحنان والشفقة "١، ومن باب الأدب القرآني، ولدلالة الاحتراز عن صورة الأمر التي تشعر الأم بأنها مأمورة على فعل ليس بحاجة للتأكيد بالأمر، تم العدول عن صيغة الإنشاء. وأُظهر العدول بالمضارع دون الماضي؛ وذلك اتفاقا مع معنى الندب، ولا تخفى دلالة الاستمرارية في المضارع، فمع هذه الاستمرارية والمداومة في الإرضاع، يتواجد الحنان والعطف، ويزداد تعلق المولود بأمه وحبه لها.

ثالثا: قال تعالى: { إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ، فِيهِ آَيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آَمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ}(آل عمران:٩٦-٩٧).

١ المرجع السابق، الصفحة نفسها.

فقد استعملت شبه الجملة (الجار والمجرور) في الآية القرآنية لمعنى الأمر، فابتدأت بالحديث عن البيت الحرام وذكر أهميته، وتعظيم شأنه؛ وذلك لحثّ الناس على شد الرحال إليه وترغيبهم بزيارته، وقد بينت الآية أنه أول بيت وضع للناس، وأنه مبارك، وأن فيه هدى للناس، وفيه آيات بينات، كمقام إبراهيم –عليه السلام– وأنه مكان آمن للناس.

وبعد بيان منزلة هذا البيت المبارك، ذكر جلّ ذكره عبادة عظيمة تؤدى في هذا البيت، وهي الحج فقد قال تعالى: {وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ}، فهذه الآية دلَّت على وجوب الحج، يقول ابن عاشور: " يتجه بأن تكون هذه الآية هي التي فرض بها الحج على المسلمين وقد استدل بها علماؤنا على فريضة الحج...فأمّا إيجاب الحج في الشريعة الإسلامية فلا دليل على وقوعه إلاّ في هذه الآية، وقد تمالأ علماء الإسلام على الاستدلال بها على وجوب الحج"[1]

وفريضة الحج ليست كبقية الفرائض من ناحية الأداء، فالحج فرض واجب في العمر مرة على من ملك القدرة عليه، وفي هذا ذكر السيوطي (٩١١)هـ سؤال رجل لرسول الله، فقال : " يا رسول الله، أفي كل عام؟ قال: والذي نفسي بيده لو

١ ابن عاشور، التحرير والتنوير، الدار التونسية، ج٤، ص:٢١

قلت نعم لوجبت، ولو وجبت ما قمتم بها، ولو تركتموها لكفرتم فذروني ما وذرتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم أنبيائهم واختلافهم عليه، فإذا أمرتكم بشي فأتمروه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن أمر فاجتنبوه."[1]

ففي كلامه صلى الله عليه وسلم دليل على وجوب الحج مرة واحدة، فرسول الله يأمر بما أمر به الله عزّ وجلّ.

والأمر بوجوب الحج على المسلمين يظهر في قوله تعالى: {وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ} وأمره عزّ وجلّ ظهر بصيغة خبرية باستخدام شبه الجملة من الجار والمجرور، لتدل الصيغة على معنى الأمر. وقد جاء في تفسير ابن عاشور: " وفي هذه الآية من صيغ الوجوب صيغتان: لام الاستحقاق، وحرف (على) الدال على تقرر حق في ذمة المجرور بها، وقوله: {مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا} بدل من الناس لتقييد حال الوجوب."[2]

فالله عزّ وجلّ فرض الحج على القادر المستطيع بدلالة غير مباشرة؛ فمعنى الآية خرج للأمر، ويؤكد الآلوسي بأن لله حكمة في أمر القادر على الحج تقتضي بظهور رحمته تعالى، فالفرض تكليف، والتكليف يكون بحسب الوسع

١ السيوطي، الدر المنثور، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط١، دار هجر للبحوث والدراسات العربية والإسلامية، القاهرة، ٢٠٠٣، ج٣، ص:٦٨٧
٢ ابن عاشور، التحرير والتنوير، الدار التونسية، ج٤، ص:٢٢

والقدرة فيه، وفي ذلك مراعاة لخلقه –تعالى–، ويشير كذلك بأن الحكمة لا تقتضي بأن أمر الامتثال للقادر والنهي عن هذا الأمر لغير القادر."[1]

ويرى الباحث أن هذه الآية أفادت بمقتضى السياق معنى إنشائيا وبمقتضى الصيغ معنى خبريا، باعتبار أن الله تعالى قصد الإخبار في أمر الحاج المستطيع، وجيء بهذا العدول لإظهار معنى الأمر لدلالة الاهتمام بالمأمور به والحرص على تحقيقه، بحمل المخاطب على المطلوب، ويكون تقدير الآية على الأمر: حِجَّ البيت الحرام أيها المستطيع. وتظهر دلالة أخرى في هذا العدول وهي إظهار رحمة الله تعالى لعباده، وعفوه عن ترك فريضة من أعظم فرائضه لغير القادر عليها، إمّا لضعف بنيته الجسدية، وإمّا لعدم امتلاكه تكاليف الذهاب والإياب للبيت الحرام، لكنه عزّ وجلّ لا يريد من غير المستطيع أن يفهم معنى هذا العدول بأن فريضة الحج سقطت عنه، فإذا امتلك المال وهُيأت له الأسباب ليكون بصحة جيدة، فعليه أن يسارع لامتثال أمر الله تعالى. ومن هنا تكون الدلالة الأولى للعدول إلى الصيغة الخبرية هي حمل المخاطب على المطلوب منه.

---

١ انظر: الآلوسي، روح المعاني، ج٤، ص:١٠

وأدرجت سناء عباس –في دراستها– هذه الآية تحت عنوان الإنشاء بمعنى الخبر[1]، وقد يصح ذلك حسب التفسير؛ وذلك إذا قال قائل إن الفرض ليس بحاجة لأن يعدل به الله تعالى إلى الإخبار، لكن الله تعالى أمر بالحج فهو هنا يخبر عنه.

ونجد في القرآن الكريم أمثلة كثيرة لاستعمال الصيغة الخبرية بمعنى الأمر، ومن ذلك استعمال الفعل المضارع لدلالة الأمر كما في قوله تعالى: {قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آَمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ} (إبراهيم:٣١) والمعنى: أقيموا الصلاة، ومنه أيضا استعمال أسلوب الحصر لمعنى الأمر، قال تعالى: { لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ} (الواقعة:٧٩) إذ النهي ضرب من الأمر. ومنه أيضا استعمال الجملة الاسمية (المبتدأ والخبر) لمعنى الأمر، قال تعالى: { الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ} (النساء:٣٤) والمعنى: أمر الرجل بتحمل مسؤولية الرعاية والحماية للمرأة.

وبعد فهذه مُثُلٌ من القرآن الكريم عرض الباحث فيها لبلاغة إنزال الإنشاء منزلة الخبر، وما يتضمنه هذا الشكل من أشكال العدول البلاغي في القرآن

---

١ انظر: سناء فضل عباس، الاتجاه البياني في تفسير المنار(علم المعاني)، رسالة دكتوراه مقدمة إلى: كلية الشريعة، جامعة اليرموك، الأردن،٢٠٠٧، ج٢، ص:٢٦٩

الكريم من قيم دلالية ونكت بلاغية. ولقد استبان لنا بعد هذا العرض ما يتركه هذا الأسلوب في نفس المتلقي من معان جليلة، وما يبيحه من إمكانات لغوية دلالية دقيقة.

إن المتأمل في هذه المُثُل وغيرها تتكشف لديه صورة عظيمة من صور إعجاز القرآن الكريم البلاغية، فأسلوب العدول هذا وما يبينه من دلالات يقدم صورة صادقة لمدى ارتباط الأساليب اللغوية بالظروف النفسية لأبناء اللغة. لقد راعى القرآن الكريم هذه المعاني وغيرها بصورة أحارت الناظرين في دقة القرآن في مراعاته للجوانب النفسية للمخاطَبين، وبيان أحوالهم الذاتية. فكان هذا الأسلوب دليلا علميا بلاغيا قويما سعينا ما أمكننا تجليته بوضوح وبخاصة بعد عرضنا لأمثلة تطبيقية مثلت هذه الظاهرة الأسلوبية الفريدة.

المصادر والمراجع:

– ابن الأثير: ضياء الدين علي بن محمد، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، قدمه وحققه وعلّق عليه: د.أحمد الخوفي، د.بدوي طبانة، دار نهضة مصر للطبع والنشر، الفجالة– القاهرة.

– أحمد حمّاد الصانع، من وظائف البلاغة العربية في العصر الحاضر، رسالة ماجستير مقدمة إلى: كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، الأردن، ٢٠٠٨م.

– أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، ط١٢، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

– الآلوسي: شهاب الدين السيد محمود، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

– بسيوني عبد الفتاح فيود، علم المعاني دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني، ط٢، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٤.

– التفتازاني: العلاّمة سعد الدين مسعود بن عمر، الممطول شرح تلخيص مفتاح العلوم، تحقيق: د.عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت.

– الجرجاني: الشيخ عبد القاهر بن عبد الرحمن، دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود محمد شاكر، ط٥، مكتبة الخانجي، القاهرة، ٢٠٠٤م.

– حميد آدم ثويني، البلاغة العربية (المفهوم والتطبيق)، ط١، دار المناهج للنشر والتوزيع، عمّان، ٢٠٠٧م.

– أبو حيّان: محمد بن يوسف الأندلسي، تفسير البحر المحيط، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٣م.

– الزمخشري: جار الله محمود بن عمر، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود وآخرون، ط١، مكتبة العبيكان، الرياض، ١٩٩٨م.

– السكاكي: يوسف بن أبي بكر، مفتاح العلوم، ضبط: نعيم زرزور، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧م.

– سناء فضل عباس، الاتجاه البياني في تفسير المنار(علم المعاني)، رسالة دكتوراه مقدمة إلى: كلية الشريعة، جامعة اليرموك، الأردن،٢٠٠٧م.

– السيوطي: الحافظ جلال الدين محمد بن عبد الرحمن، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، تحقيق: د.عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط١، مركز هجر للبحوث والدراسات العربية والإسلامية، القاهرة، ٢٠٠٣م.

– الشعراوي: محمد متولي، تفسير الشعراوي، مجمع البحوث الإسلامية، الإدارة العامة للبحوث والتأليف والترجمة.

– ابن عاشور: محمد الطاهر، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م.

– ابن عاشور: محمد الطاهر، التحرير والتنوير، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، ١٩٩٧م.

– عاطف فضل، تركيب الجملة الإنشائية في غريب الحديث، ط١، عالم الكتب الحديث، إربد، ٢٠٠٤م.

– عبد الحفيظ مراح، ظاهرة العدول في البلاغة العربية مقاربة أسلوبية، رسالة ماجستير مقدمة إلى: كلية الآداب واللغات، جامعة الجزائر، الجزائر، ٢٠٠٦م.

– عبد الفتاح لاشين، المعاني في ضوء أساليب القرآن الكريم، دار الفكر العربي، القاهرة، ٢٠٠٢م.

– العلوي: يحيى بن حمزة، كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، دار الكتب الخديوية، مصر، ١٩١٤م.

– فضل حسن عباس، البلاغة فنونها وأفنانها، ط١١، دار الفرقان للنشر والتوزيع، عمّان، ٢٠٠٧م.

– فضل حسن عباس، سناء فضل عباس، إعجاز القرآن الكريم، ط٧، دار النفائس للنشر والتوزيع، عمّان، ٢٠٠٩م.

– قدامة بن جعفر، نقد النثر، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٢م.

– القرطبي: محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، تحقيق: د.عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ٢٠٠٦م.

– القزويني: الإمام جلال الدين محمد بن عبد الرحمن، شرح التلخيص في علوم البلاغة، شرحه: محمد هاشم دويدري، ط٢، دار الجليل، بيروت، ١٩٨٢م.

– محمد محمد أبو موسى، دلالات التراكيب دراسة بلاغية، ط٣، مكتبة وهبة، القاهرة، ٢٠٠٤م.

– محيي الدين درويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه، ط٧، دار اليمامة، دمشق– بيروت، دار ابن كثير، دمشق– بيروت، ١٩٩٩م.

– ابن منظور: أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، تحقيق: عبد الله علي الكبير وآخرون، ط١، دار المعارف، القاهرة.

– أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، تحقيق: علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا– بيروت، ١٩٨٦م.